

علاقة الحركة بالحرف في الرتبة عند ابن جني (392هـ)

أ. د. حماني حمزة

جامعة العربي بن مهيدي

أم البواقي

1- تمهيد:

اهتم النحاة العرب اهتماما كبيرا في الدراسات الصوتية ، وقد اتكأت دراستهم على الحس الرفيع والذوق السليم والمنهج الوصفي الدقيق في تميز الأصوات والحروف ، ووضع معايير لأدائها ونطقها ، وقد برعوا في ذلك في وقت لم يكن لديهم أجهزة وآلات كما هو الحال ، وفي ظل الثورة العلمية الهائلة والتقدم التكنولوجي الكبير احتلت الدراسات الصوتية مكانا مرموقا، فأفرد العلماء المؤلفات الكثيرة وصفا وشرحا لدقائق الأصوات معتمدين على الآلات ولأجهزة الحديثة المتطورة.

ولما كانت الحركات والحروف تؤلفان جزئي البناء اللفظي للكلمة ،ظهرت الحاجة لدراستهما في الجوانب المختلفة والخواص المتنوعة ؛من مخرج وصفة وما يقوم به الجهاز النطقي من جهود عضلية كثيرة مصاحبة لإنتاج الصوت ،وما يكون من تفاعل بين هذه الأصوات في بنية الكلمة. وجاءت هذه الدراسة في أحد جانبي اللفظ ألا وهي الحركة ؛لما لها من دور كبير في بنية الكلمة .

2- حد الحركة وتسميتها:

الحركة في اللغة ضد السكون¹ ، وكأن الحركة تعتمد إلى الساكن فتحوله من السكون إلى الحركة. وفي الاصطلاح هي صوت خفي مقارن للحرف لا يبلغ به الناطق مدى الحرف الذي هو بعضه² ، و أول من أطلق عليها هذه التسمية هو أبو الأسود الدؤلي، حين قام بعملية نقط المصحف الشريف ؛ إذ تخير كاتباً لقنا وقال له: «إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه، وإن ضمنت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل نقطة من تحت الحرف»³.

الملاحظ لعمل أبي الأسود يراه قد بدأ بوضع الشكل الأول للحركات من حيث موضع الرسم وإظهارها خطأ، إذ لم يتعرض لها من الناحية الصوتية كي يحددها بل اعتمد في تحديدها على الملاحظة بالعين حتى لا يلتبس الأمر على كاتبه.

ومن هنا يمكن القول بأن عمل أبي الأسود فتح باباً لإدراك الفرق بين القسمين المهمين من الأصوات ، كما لفت النظر إلى تحركات أعضاء النطق حال إنتاج الصوت وخاصة ما يتصل بالحركات . والمتصفح للكتب اللغوية يرى بأن الحركة لم تنل اهتماماً واضحاً كالصوامت ، ولم يظهر مصطلح الحركات بوصفه مصطلحاً صوتياً يدرس دراسة مفردة مفصلة ، بل جاء عرضه ضمن الحديث عن الجوانب النحوية ، وقد أشارت بعض الدراسات التي رصدت المصطلح الصوتي في التراث العربي إلى ذلك، فهذه "آمنة بن

مالك " تقول: «وما نشير إليه في هذا الصدد أيضا أن النحاة العرب لم يعرفوا مصطلح الحركات، ولم يدرسوها على حدة، إلا أنهم لم يتجاهلوا خصائصها»⁴. وما يُقصد من هذا القول عدم إعطائه القيمة والدراسة التي تناسب أهميته في اللغة كما كشف عنه "ابن جني". ويبقى مصطلح الحركة بالمفهوم الصوتي غير محدد البداية إلا أننا نجد "ابن جني" يشير إلى هذا المصطلح في كتابيه: "الخصائص، وسر صناعة الإعراب"؛ إذ نراه لم يحدد واضح هذا المصطلح ولم ينسب التسمية لنفسه بل جعلها مجهولة حين قال: «و سميّت هذه الأصوات الناقصة حركات لأنها تقلق الحرف التي تقترن به وتجذبها نحو الحروف التي هي أبعاضها، فالفتحة تجذب الحرف نحو الألف، والكسرة تجذبها نحو الياء، والضمّة تجذبها نحو الواو، ولا يبلغ الناطق بها مدى الحروف التي هي أبعاضها فإن بلغ بها مداها تكملت الحركات حروفاً، أعني ألفا وياء وواوا»⁵.

المتأمل في نص "ابن جني" يرى أنه عدها من الأصوات الناقصة، وذلك للمدة الزمنية التي تستغرقها، فمتى استطالت وامتدت اكتملت وتحولت إلى حروف. ومن هنا يمكن أن نتساءل: هل اكتمال الحركة حتى تصير حرفاً تكون حصيلته حركة واحدة أم حركة يليها حرف؟.

وسميّت الحركة حركة لأنها «تقلق الحرف عن موضعه ومستقره وتجذبها إلى جهة الحرف التي هي بعضه...»⁶، ولقد أورد "ابن جني" هذا التعريف في معرض حديثه عن طريق معرفة صدى الحرف، فمن قوله السابق يتضح أنه لا بد من الإتيان بالحركة مسبقة بالهمزة ومتبوعة بالحرف الذي

نريد معرفة جرسه ،كقولنا مثلا "أك" فتكون الحركة بذلك بعض الحرف،بمعنى أنها تشكل معه مقطعا ،وعند النطق بالحرف نعرفه جرسه وصداه،ولإلا فإن « الحركة ليست بعض الحرف »⁷.

لقد نظر "ابن جني" إلى هذا الإشكال وعدّ الحركة بعض الحرف ،إذ يشكّلان (الحركة والحرف) وحدة صوتية متكاملة ، ويضاف إلى ذلك أن المتحرك «لا يمكن تحميله أكثر من حركتين ،لأن الحركة التي هي فيه قد أستغني بكونها فيه عن اجتلابها له،وذلك نحو ميم "عُمَر"،يمكن أن تحملها الكسرة والضمة،فتقول عُمِر وعُمِر،ولا يمكنك أن تحتلب لها فتحة،لأنها كانت في أول اعتبارك إياها مفتوحة ،والحرف الواحد لا يتحمل حركتين ،لا متفتحتين ولا مختلفتين »⁸. من هذا النص يمكن أن نلاحظ أن "الميم" مثلا تحمل حركة واحدة لأن الحرف لا يقبل حركتين.ويرى "جلال الدين السيوطي" أن تسمية الحركة بالحركة تسمية مجازية،وذلك لأن قولهم «حرف متحرك وتحركت الواو ونحو ذلك تساهل منهم ،فإن الحركة عبارة عن انتقال الجسم من حيز إلى حيز ،والحرف جزء من الصوت ومحال أن تقوم الحركة بالحرف لأنه عرض ،والحركة لا تقوم بالعرض ،وإنما المتحرك في الحقيقة هو العضو من الشفتين أو اللسان أو الحنك الذي يخرج منه الحرف ،فالضمة عبارة عن تحريك الشفتين بالضم عند النطق فيحدث من ذلك صوت خفي مقارب للحرف إن امتد كان واوا ،وإن قصر كان ضمة ،والفتحة عبارة عن فتح الشفتين عند النطق بالحرف وحدوث الصوت الخفي الذي يسمى فتحة ،وكذا القول في الكسرة»⁹.وتسمية هذه الحركات مبني على حركة أعضاء

النطق، لأن من أراد أن يتلفظ بالفتحة، فلا بد من فتح الفم، وانتصاب الشفة العليا، ومن أراد التلظظ بالكسرة، فعليه فتح الفم فتحاً قوياً بحيث ينجر اللّحي الأسفل وينخفض، ومن أراد التلظظ بالضمّة فلا بد له من ضم الشفتين أولاً ثم رفعهما ثانياً¹⁰. و من خلال هذا العرض المقتضب الذي يدور حول سبب تسمية الحركة بهذا الاسم، نجد أنها صوت هوائي ليس له مخرج محدد كغيره من الأصوات، وأن هذا الصوت يأتي على نوعين حسب كميته: صوت قصير وهو ما يعرف بالحركة وصوت طويل وهو ما عرف بحرف المد، كما أنني لم أتعرض للحركة حسب التسلسل الزمني وذلك لضيق المقام الذي نحن بصددده.

3- الحرف ودلالاته:

تنقسم الحروف إلى قسمين: قسم يسمى حروف المعاني والقسم الآخر يسمى بحروف المباني، وهذا النوع الأخير هو المقصود في هذا المبحث، والتي تشكل اللبنة الأولى للغة، إذ هي عبارة عن رموز مسطوية لأصوات لا معنى لها مجرد ذاتها لكونها «رموز مجردة لا يدل كل منها عند انفصاله عن غيره إلا على نفسه»¹¹.

وسميت بحروف المباني لأن الكلمة تبنى وتتكون صيغتها منها، بحيث إذا اتصلت الفاء بالميم شكلت كلمة "فم"، واتصال العين بالياء والنون شكلت "عين" وهكذا تنشأ الكلمات سواء كانت ثنائية أو ثلاثية أو رباعية وغيرها من انضمام بعض حروف الهجاء إلى بعض، مشكلة بنية

الكلمة¹². ومدلول مصطلح الحرف في العربية يستخدم للدلالة على المعنى العجمي، وكذلك للإشارة إلى الصوت، وعلى شكل الكتابة وقد يدل على الكلمة. والمنقب في موروثنا اللغوي يجد العرب تستعمل الحرف بمعنى الناحية والوجه فقولنا: فلان على حرف من أمره، أي ناحية منه كأنه يتنظر ويتوقع، فإن رأى من ناحية ما يجب، وإلا مال إلى غيرها¹³. ومن هذا القبيل قول الله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)¹⁴، أي ناحية ووجه واحد، وهي عبادة الله في السراء لا في الضراء. ونجد في مواطن أخرى توظيف مصطلح الحرف للدلالة على وجه من وجوه القراءة أو الكلمة التي تقرأ بوجوه متعددة، إذ قال علماء القراءة: هذا في حرف ابن مسعود أي قراءته¹⁵، وجاء في الحديث قول النبي ﷺ: «نزل القرآن على سبعة أحرف كلها شافٍ كافٍ»¹⁶ أراد بالحرف اللُّغَةُ، بمعنى أن القرآن نزل على سبع لغات من لغات العرب قال وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه، وهذه اللغات متفرقة في القرآن فبعضه بلغة قُرَيْشٍ وبعضه بلغة أهل اليمن وبعضه بلغة هَوَازَنَ وبعضه بلغة هُدَيْلٍ وكذلك سائر اللغات ومعانيها في هذا كله واحد¹⁷.

أما مصطلح الحرف الدال على الصوت فهو استعمال قديم، تمتد جذوره الأولى إلى عصر الصحابة - رضوان الله عليهم - حين استعمله الإمام علي - كرم الله وجهه - بهذا المعنى، أين سئل على الترتيل فأجاب: «الترتيل تجويد الحروف ومعرفة الوقوف»¹⁸، ثم بدأ هذا اللفظ يتداول بين

القرءاء¹⁹ حتى أخذه الخليل بمعنى الأثر المسموع قائلاً لبعض أصحابه: «كيف تقولون إذا أردتم أن تلفظوا بالكاف التي في لك والكاف التي في مالك والباء التي في ضرب»²⁰، فقليل له: «نقول باء كاف»²¹، ثم أجاب الخليل معلقاً على لفظهم بقوله: «إنما جئتم بالاسم ولم تلفظوا بالحرف»²²، وإلى هذا النوع من الدلالة يشير ابن يعيش حين يعرف الحرف بقوله: «صوت مقروع في مخرج معلوم»²³.

إن الصوت ليس الحرف، وهذا الأخير «وهو صوت معتمد على مقطع محقق أو مقدر»²⁴، وهو مكتوب مقروء ويعد الصورة المرئية للصوت، وقد يعرف على أنه «الرمز الكتابي الذي يعبر عن صوت معين أو مجموعة أصوات لا يؤدي تبادلها فيما بينها إلى اختلاف في المعنى»²⁵.

بينما الصوت هو أصغر وحدة صوتية تدخل في تركيب الكلمة، وهو منطوق مسموع، بحيث وجد قبل الحرف في اللغة بينما الحرف وجد في الكتابة واللغة سابقة للكتابة بآلاف السنين. من خلال هذا الكلام يمكن القول بأن الحرف أعم من الصوت لأنه يضم مجموعة من الأصوات تنسب إلى رمز معين، والصوت هو إحدى أفراد هذه المجموعة. وقد كانا (الصوت والحرف) يستعملان بمعنى واحد. ولقد استعمل الحرف بمعنى الرمز الكتابي، ويرجح أن الخليل أول من استعمل الحرف بمعنى الرمز المكتوب ويتضح هذا أثناء حديثه عن أصوات العلة، إذ أورد في بعض أقواله أنها ثلاثة أحرف «هي الهمزة والياء والواو... وصورهن على ما ترى أوى»²⁶، ومن النصوص الذي استعمل فيها الحرف بمعنى الرمز الكتابي ما قيل عن الأصوات المذلة بأنها ستة أصوات في

حيزين «أحدهما حيز الفاء، فيه ثلاثة أحرف كما ترى: ف ب م... والحيز الآخر حيز اللام فيه ثلاثة أحرف كما ترى: ل ر ن»²⁷، وبهذا الاعتبار فإن الحرف الشكل المخصوص هو صورة مكتوبة دالة على الصوت. والمتأمل لكلام الله وهو مكتوب في مصحفه يجد بأن هذا الكلام سمي حروفاً، إذ أريد بهذه الحروف الشكل المخصوص وهي ذلك الخط التي تكتب به الأمة كلامها ولما «كانت هذه الحروف المكتوبة تطابق الحروف المنطوقة وتبينها وتدل عليها سميت بأسمائها»²⁸. ومن الدلالات الذي دل عليها الحرف مصطلح الكلمة؛ ما ذكره الخليل أثناء تعرضه لتفسير وجوه الرفع بالحكاية قائلاً: «الحروف التي يحكي بها أربعة، سمعت وقرأت ووجدت وكتبت»²⁹، فهذه كلمات أريد بها الحروف. واستخدم النحاة الحرف للدلالة على حروف المعاني نحو: من، وقد، وفي، وهل، بل، لأن هذه الأدوات تقع في غالب الأحيان طرفاً، أي أول الكلام³⁰. ومن المسلم به ذلك التمسك الشديد بالتعريف الاصطلاحي للحروف باعتبارها رموز مجردة لا يدل كل منها إلا على نفسه، لأن لا معنى لها وهي خارج التركيب ويتضح ذلك مما ذهب إليه كل من "سابير وسوسير" حين أكدا أن «الرموز الصوتية أو الكتابية أي الحروف لا معنى لها يجد ذاتها»³¹، أما إذا اتصلت والتفت حول بعضها ببعض أنتجت عن هذا الترابط ما يعرف باللفظ.

4- موضع الحركة من الحرف:

المتأمل للدرس الصوتي العربي، يرى أن هناك علاقة بين الحرف والحركة، إلا أن العرب اختلفوا في رتبتهما، وهذا دليل على أنهم نظروا إليها

مع ما قبلها وما بعدها فأثار ذلك إشكالا في الرتبة الزمنية . فيا ترى ما موقع الحركة من الحرف؟ هل هي قبله أم معه أم بعده؟.

ورد في كتاب الخصائص أن « سبب هذا الخلاف لطف الأمر وغموض الحال ، فإذا كان هذا أمرا يعرض للمحسوس الذي إليه تتحكم النفوس فحسبك به لطفا ، وبالتوقف فيه لبسا»³². ومن شدة غموض الحال عليهم اختلفوا في مكانة الحركة بالنسبة للحرف ، فانقسموا ثلاث فرق: فريق يرى بوقوع الحركة قبل الحرف، وآخر يرى أنها تخرج معه، وفريق ثالث يرى بأن الحركة تالية للحرف.

4-1- الفرق الأول: الحركة قبل الحرف:

بنى أصحاب هذا الرأي رأيهم على الحرف يأتي في الرتبة بعد الحركة ، محتجين بإجماع النحاة على حذف الواو في "يعد" و"يزن" لوقوعها بين عدوتيهاء الياء والكسرة، وأصلهما (يوجد) و(يوزن) ، فقولهم بين ياء وكسرة يدل على أن الواو أقرب إلى الياء من فتحة الياء وأقرب إلى كسرة العين من العين بعدها³³. وحذفت الواو لأنه صوت يستعلي فيه اللسان نحو الحنك الأعلى ، وضمت الشفتان، ووقعت بين الياء والكسرة اللتان المنخفض فيهما اللسان نحو أقصى الحنك، وانفرجت الشفتان، فانتقال أعضاء النطق من وضع إلى وضع مخالف له ، ثم العودة إلى الوضع الأول بسرعة فيه مشقة وكلفة.

فلو تمعنا في قول النحاة حين إجماعهم على حذف الواو لأنها تقع بين ياء وكسرة، لرأينا أن «الحركة عندهم قبل حروفها المتحرك بها؛ ألا ترى أنه لو

كانت الحركة بعد الحرف كانت الواو في "يوعد" بين فتحة وعين ، وفي "يوزن" بين فتحة وزاي، فقولهم بين ياء وكسرة يدل على أن الواو في نحو "يوعد" عندهم بين الياء التي هي أدنى إليها من فتحتها ، وكسرة العين التي هي أدنى إليها من العين بعدها³⁴. فهذا الطرح يدفع إلى الاعتقاد فعلا إلى أن الحركة تأتي في المرتبة قبل الحرف ، وإنه لدليل يقوي مذهب هذا الفريق. وعلى الرغم من ذلك إلا أن هذا الرأي لا يقوي مذهبهم بأن الحركة تسبق الحرف، وذلك من جهتين:

أ- الجهة الأولى: أن الحركة عارض في الصوت لأنه محل لها، فهي تحتاج إليه، ولا يصح القول بوجودها قبل وجوده ، ولقد ردّ "ابن جني" على هذا المذهب مستندا إلى النفس والحس إذ لا يرجع في ذلك إلى سابق سنة ولا قديم ملة، وقرر أن إجماع النحويين في مثل هذا لا يعد حجة، لأن كل واحد منهم يردّ فيه إلى التأمل والطبع لا إلى التبعية و الشرع.³⁵ ورأى "ابن جني" أن حذف الواو من "يعد" لوقوعها بعد الياء والكسرة لا ينسب مثله إليهم، وإنما غرضه أن قبلها ياء وي بعدها كسرة فليس على أنها مباشرة مماسة لها. وذكر أن هذا كثير في الكلام والاستعمال ، نحو قولك: خرجنا فسرنا فلما حصلنا بين بغداد والبصرة كان كذا، وهو قول مستقيم مألوف إلا أنه يقوله من حصل بدير العاقول، وصد موضع بين بغداد والبصرة، وكذلك الواو في "يوعد" حين تقول وقعت بين الياء والكسرة وإن كان أقرب إليها منهما فتحة الياء والعين³⁶.

ب- أما الجهة الأخرى: فلو كانت الحركة قبل الحرف لما جاز الإدغام أصلا في اللغة، لأن حركة الثاني تكون حينئذ حاجزا بين الصوتين (المثلين)³⁷ ، ولتأمل كلام "ابن جني" حين نراه يقول: «ألا ترى أنك تقول "قطّع" فتدغم الطاء الأولى في الثانية ولو كانت حركة الطاء الثانية في المرتبة قبلها

لكانت حاجة بين الطاء الأولى وبين الطاء الثانية، ولو كان الأمر كذلك لما جاز إدغام الأولى في الثانية»³⁸، لأن الحرف إذا تحرك تحصن وإذا سكن ذهب الحصانة، وعليه فإن أصل الإدغام أن يكون الثاني متحركاً أما إذا وقعت حركته حاجزاً بينه وبين الأول لم يجر الإدغام³⁹.

4-2- الفريق الثاني: الحركة تخرج مع الحرف:

رأى القدماء أن الحركة لازمة للحرف لزوماً مطلقاً، وقد ساعد على تصوير ذلك ما جرت عليه الكتابة العربية من وضع الحركات فوق الحروف. ⁴⁰ومن أدلتهم على هذا الرأي أيضاً: «أن الحرف يوصف بالحركة فكانت معه كالمدة والجهر والشدة ونحو ذلك، وإنما كانت كذلك لأن صفة الشيء كالعرف والصفة العرضية لا تتقدم الموصوف ولا تتأخر عنه إذ في ذلك قيامها بنفسها»⁴¹. وإلى هذا الرأي يميل مكّي بن أبي طالب قائلاً: «وقال جماعة: الحروف والحركات لم يسبق أحدهما الآخر في الاستعمال، بل استعمالاً كالجسم والعرض، اللذين لم يسبق أحدهما الآخر»⁴²، فالحركة والحرف يحصلان في زمن واحد دون أن يسبق أحدهما الآخر. ومن أصحاب هذا الرأي أبو علي الفارسي الذي ورد عنه في كتاب "سر صناعة الإعراب" أنه استدل على أن الحركة تحدث مع الحرف وذلك «أن النون الساكنة إذا تحركت زالت عن الخياشيم إلى الفم، وكذلك الألف إذا تحركت انقلبت همزة، فدل ذلك عنده على أن الحركة تحدث مع الحرف، وهو لعمري استدلال قوي»⁴³. وورد في كتاب «الخصائص» أنه قال يقوي قول من قال: «إن الحركة تحدث مع الحرف أن النون الساكنة مخرجها مع حروف الفم من

الأنف، والمتحركة مخرجها من الفم، فلو كانت حركة الحرف تحدث من بعده لوجب أن تكون النون المتحركة أيضا من الأنف وذلك أن الحركة إنما تحدث بعدها، فكان ينبغي ألا تغنى عنها شيئا؛ لسبقها هي لحركتها»⁴⁴. ولقد ذكر "أبو علي الفارسي" أن الحركة تحدث مع الحرف بانبا رأيه على اختلاف مخرج النون حالة تحركها عنه حال السكون، فمخرجها حال تحركها من الفم، أما حال السكون فمن الأنف، فلو كانت الحركة بعد النون لكانت النون قبل حركتها ساكنة ولخرجت من الأنف، ولما تغير مخرج النون المتحركة دلّ على أن ذلك بفعل الحركة، وهذا كله يدل على أن الحركة مع النون لا بعدها. وكذلك لو لم تكن الحركة مصاحبة للحرف لما انقلبت الألف همزة عند تحركها. وكان استدلال أبي علي في هذا المجال يقوم على حرفي النون والألف. والمتأمل لكتاب "الخصائص" يجد بأن صاحبه يرد على شيخه "أبو علي الفارسي" في مسألة مخرج النون ويرى أن النون الساكنة إذا وقعت بعدها الباء قلبت النون ميما في اللفظ "كعمبر و شمباء" في "عنبر و شنباء" فكما لا يشك في وجود الباء بعد النون، وقد قلبت النون قبلها ومن ثم فلا ينكر أن تكون حركة النون الحادثة بعدها زالت عنها عن الأنف إلى الفم. وإذا كان ذلك في الباء التي هي أبعد من النون قبلها عن حركة النون فكيف بحركة النون التي هي أشد التباسا بها وأولى بنقلها من الأنف إلى الفم⁴⁵. واستدل "ابن جني" أيضا على فساد هذا المذهب والمذهب القائل بمحدوثها قبل الحرف، بأننا لو أمرنا مذكرا بالطي ثم أتبعناه أمرا آخر له من الوجمل من غير عاطف لقلنا "اطو ايجل" والأصل في ذلك "اطو اوجل" فلو لم تكن كسرة الواو في "اطو" في الرتبة بعدها لما قلبت واو "اوجل" ياء وذلك أن الكسرة إنما تقلب

الواو لمخالفتها إياها في جنس الصوت فتجذبها إلى ما هي بعضه وهو الياء، ولو كانت الكسرة في باب "اطو" قبل الواو لكانت الواو الأولى حاضرة بينها وبين الثانية كما كانت ميم ميزان حاجة بينهما. ولا يجوز أن تكون الكسرة مع الواو المتحركة بها لأن الكسرة على هذا الاعتبار ليست أدنى إلى الواو الثانية من الواو الأولى وهنا لا تقبل الواو الثانية ياء لأن الكسرة إذا كانت تريد قلب الواو الثانية فإن الواو الأولى تتطلب بقاءها، وليست إحداها أولى من الأخرى في تنفيذ ما تقتضيه وإذا كان الأمر كذلك ترافعت الواو والكسرة أحكامهما فكانه لا وجود للكسرة قبلها ولا للواو، وإذا كان ذلك لم نجد علة تقلب له الواو الثانية ياء ومن ثم وجب أن تخرج الواو الثانية من "اطو او جل" صحيحة غير معتلة⁴⁶.

ثم إن أصحاب هذا الرأي تأثروا بالمستوى الكتابي، فلما كانت الحركة تكتب فوق الحرف اعتقدوا أنها حدثت معه في زمن واحد.

4-3- الفريق الثالث: الحركة تخرج بعد الحرف:

يرى أصحاب هذا الفريق أن الحركة تحدث بعد الحرف وأنها تأتي في الزمن بعده. ومن أصحاب هذا الفريق "سيبويه" وتابعه "ابن جني" وغيرهما. يقول "ابن جني": «فمما يشهد لسيبويه بأن الحركة حادثة بعد الحرف وجودنا إياها فاصلة بين المثليين مانعة من إدغام الأول في الآخر؛ نحو الملل و الضفف و المشش؛ كما تفصل اللف بعدها بينهما؛ نحو الملل والضفف والمشاش»⁴⁷.

المتنعم في نص ابن جني يلاحظ بأن الحركة جاءت فاصلة بين المثليين أو المتقاريين مانعة من إدغام الأول في الثاني، بمعنى مجيء المثليين متحركين من دون إدغام، في نحو: "الملل و الضفف"، فوجود الحركة (الألف) هي التي فصلت بينهما في نحو: "الملل والضفف والمشاش"، فعدم إدغام المثليين في الملل دليل على أن الحركة فاصلة بين اللامين، وأنها واقعة بعد اللام الأولى وقبل الثانية فحالت دون إدغامها. ومما فصلت الحركة بين المتقاريين ومنعت من الإدغام قول العرب "وتد" إذا سكنت التاء لإرادة الإدغام: "ود" فكانت الحركة في التاء قبل إسكانها فاصلة بينها وبين الدال فلما زالت الحركة أن تكون حاضرة بينها وبين من بعدها سكنت التاء واجتمع بذلك المتقاريان ثم أدغمت في الدال بعد إبدالها دالا⁴⁸. فالدال والتاء صوتين متجانسين بمعنى أن مخرجهما واحد لذا كانت العرب تكره تجاور صوتين مختلفين صفة فأبدلت التاء دالا ثم أدغمت حتى صارت على ما هو عليه الآن. ويضيف مكّي بن أبي طالب أدلة أخرى يثبت بها أن الحركة تالية في الرتبة للحرف، وذلك «أن الحرف يسكن ويخلو من الحركة، ثم يتحرك بعد ذلك، فالحركة ثانية أبداً، والأول قبل الثاني بلا اختلاف. ومنها: أن الحرف يقوم بنفسه، ولا يُضطرُّ إلى حركة والحركة لا تقوم بنفسها، ولا بد أن تكون على حرف، فالحركة مضطرةً إلى الحرف، والحرف غير مضطرُّ إلى الحركة، فالحرف أول. ومنها أن من الحروف ما لا يدخله حركة نحو الألف، وليس ثم حركة تنفرد بغير حرف. فدلّ ذلك عندهم على أن الحرف في القوة متقدمة على الحركات»⁴⁹. فإمكانية وجود الحرف وحده دون الحركة، وعدم إمكانية وجود حركة بمفردها بغير حرف مصاحب لها، كلها أدلة تؤكد أن الحركة تابعة للحرف.

ولقد ذهب القدماء أيضا إلى معاملة الألف والواو والياء المدية على أنها ليست حركات للصامت قبلها، بل هي أصوات مد نشأت من إشباع حركة الصامت قبلها، فالألف من "قال" مدّ لفتحة القاف لأن أصل "قال" "قول" فوقع انزلاق بين الفتحين وقلبت الواو ألفا للانسجام، والقاف بقيت تحمل فتحة قصيرة تسبق الألف، وإلى هذا الرأي يشير ابن جني قائلا: «الحركة قد ثبت أنها بعض حرف. فالفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمّة بعض الواو. فكما أن الحرف لا يجامع حرفا آخر فينشأ معا في وقت واحد، فكذلك بعض الحرف لا يجوز أن ينشأ مع حرف آخر في وقت واحد؛ لأن حكم البعض في هذا جار مجرى الحكم على الكل. ولا يجوز أن يتصور أن حرفا من الحروف حدث بعضه مضامًا لحرف، وبقيته من بعده في غير ذلك الحرف، لا في زمان واحد ولا في زمانين. فهذا يفسد قول من قال: إن الحركة تحدث مع حرفها المتحرك بها أو قبله أيضا»⁵⁰. المتأمل لهذا النص يرى أن صاحبه يثبت أن الحركة بعد الحرف في الرتبة، وذلك أن كل وحدة صوتية تستقل عن الوحدة الصوتية الأخرى، كما لا يمكن إنتاجهما في آن واحد.

ثم يواصل حديثه بقوله: «ألا ترى أن الحرف الناشئ عن الحركة لو ظهر لم يظهر إلا بعد الحرف المتحرك بتلك الحركة، وإلا فلو كانت قبله لكانت الألف في نحو ضارب ليست تابعة للفتحة؛ لاعتراض الضاد بينهما، والحس يمنعك ويحظر عليك أن تنسي إليه قبوله اعتراض معترض بين الفتحة والألف التابعة لها في نحو ضارب وقائم ونحو ذلك. وكذلك القول في الكسرة والياء والضمّة والواو إذا تبعتهما. وهذا تناه في البيان»⁵¹. انطلق "ابن

جني" من كون الحركة بعض الحرف، فالفتحة مثلا بعض الألف، فكما أمه لم يثبت اجتماع حرفين في آن واحد فكذلك بعض الحرف لا ينشأ مع حرف آخر في آن واحد؛ لأن ما يجري على الكل يجري على الجزء. ثم الحركة عندما تشيع يتولد عنها مثل "ضرب - ضارب". فلو كانت الحركة قبل الحرف، لكانت الضاد فاصلة بين الفتحة والألف وهذا يتنافى مع الحس والطبع وقد أصاب ابن جني بقوله: «وهذا تناء في البيان». وهذا المنطق لم تقبله الدراسات الحديثة التي نصت على أن القاف متحركة بالفتحة الطويلة بعدها، وأن الحركة القصيرة ذهبت في الحرف الذي هي بعضه⁵²، وقد ورد هذا المعنى في كلام ابن جني، إذ رأى بأن الحركات أبعاض حروف المد، وأن الحركة إذا أشبعت ومطلت أنشأت حرفا من جنسها⁵³. ولا يمكن فصل الحركة من هذا المد، لأن هذه الحركة تبقى مدا مادامت متصلة. ومن الأدلة على أن الحركة تالي للحرف ما ذهب إليه الرضى حين رأى بأن «الحركة بعد الحرف لكنها من فرط اتصالها به يتوهم أنها معه لا بعده بلا فصل فإذا أشبعت الحركة صارت حرف مد تاما»⁵⁴. وختاما لهذا الكلام يمكن القول بأن الفصل بين الحرف والحركة وأيهما يسبق الآخر أمر في غاية الصعوبة؛ وذلك لشدة التلازم بينهما لأن الحركات كغيرها من الأصوات لها من الصفات ما يجعلها تكون قبل الحرف أو معه أو بعده؛ كما أنه لا يمكن أن تتلو الحركة حركة أخرى لأن الحرف الواحد لا يتحمل حركتين مهما كان نوعهما سواء أكانتا متفتحتين أم مختلفتين.

وبعد هذه الرحلة الشيقة التي كانت تدور حول علاقة الحركة بالحرف في الرتبة ، خرجت من هذا البحث بعدة نتائج ،وقد حصرتها في النقاط التالية:

-للحركة دور بارز من الناحية الصوتية ؛إذ عدت أداة لوصل الكلام بعضه ببعض ، وما يتبع ذلك من سرعة في الأداء إلى جانب دورها في قلب صيغ الاشتقاق المختلفة ،واختلاف المعنى من بنية إلى أخرى ،كما لعبت الحركات الإعرابية دورا بارزا في تحمل المعنى من الفاعلية و المفعولية و الإضافة.

- اختلاف العلماء في موقع الحركة من الحرف ،وخلص البحث إلى أن الحركة مشمولة بالحرف ،وأن التبعية في الرتبة لا في الزمن. -كانت نظرة القدماء إلى الحركات نظرة مقطعية وليست نظرة هجائية ،فالحرف عندهم متضمن للحركة فقد يوجد الحرف ولا حركة معه ،أما الحركة لا توجد إلا بوجود الحرف .كما رصدوا تفاعلات الحركة مع الحرف وأن كل واحد منهما يؤثر في الآخر ،بل ذهبوا أبعد من ذلك وعدوا الحركة مكونا أساسيا من مكونات المقطع،ويعد بحثهم في علاقة الرتبة بين الحرف والحركة دليلا على نظرتهن المقطعية.

-الحروف تنقسم إلى قسمين :حروف المعاني ،وحروف المباني ،وهذه الأخيرة هي التي يتشكل منها بناء الكلمة ، أما حروف المعاني هي ما دلت على معنى في غيرها لا في ذاتها كحروف العطف والجر وغيرها .وقد يتضح

من هذا البحث أن لحروف المباني دلالات مختلفة، منها ما هو معجمي ومنها ما دل على الكلمة، وعلى وجه من وجوه القراءة، وعلى اللغة، وعلى الصوت، شكل الكتابة.....

- ونعتقد جازمين أن هذا العمل ما هو إلا محاولة جادة نبتغي فيها المنفعة العلمية العامة، راجين من المولى عز وجل أن يتقبله وينفع به، فإن كان ما قدمناه صواباً فهو من الله وإن كان عكس ذلك فهو من أنفسنا، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

الهوامش:

¹ - ينظر كل من: مقاييس اللغة، ابن فارس أبو الحسن، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية، إيران، دت، لسان العرب: ابن منظور جمال الدين محمد، دار صادر، بيروت، لبنان-1956، تاج العروس من جواهر القاموس: الزبيدي محمد مرتضى حسيني، تح: حسين نصار، مطبعة حكومة الكويت، 1969، (مادة حرف).

² - ينظر: نتائج الفكر في النحو: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي، تح: محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام، 1984م، ص: 67.

³ - الفهرست: ابن النديم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1398هـ/1978م، ص: 40.

- ⁴ - مصطلحات الدراسة الصوتية في التراث العربي: رسالة دكتوراه دولة تقدمت بها الطالبة: أمّنة بن مالك، جامعة الجزائر، 1987، ص: 332.
- ⁵ - سر صناعة الإعراب: ابن جني أبو الفتح عثمان تح: حسن هندراوي، دار القلم، دمشق سوريا، ط1: 1985. 1/26-27.
- ⁶ - نفسه: 1/6.
- ⁷ - الأشباه والنظائر في النحو: جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، دط، دت، 1/186.
- ⁸ - سر صناعة الإعراب: 1/27.
- ⁹ - الأشباه والنظائر: 1/206-207.
- ¹⁰ - ينظر: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1/1411هـ-1990م، 1/84.
- ¹¹ - النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف للطباعة والنشر، القاهرة، ط3/1975 - ج2/13
- ²¹ - ينظر: المرجع نفسه: ج1/13
- ³¹ - ينظر كل من: مقاييس اللغة، لسان العرب، تاج العروس، مادة (حرف).
- ⁴¹ - الحج: 11
- ⁵¹ - ينظر: السبعة في القراءات، ابن مجاهد، تح: شوقي ضيف، دار المعارف المصرية 1972- ص: 48، واللسان: (حرف)، العين: (حرف) .
- ⁶¹ - لسان العرب: مادة (حرف).
- ⁷¹ - ينظر: المصدر نفسه: مادة (حرف).
- ⁸¹ - النشر في القراءات العشر، أبي الخير محمد بن محمد بن الجزري، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، دت، 1/166.
- ⁹¹ - ينظر: السبعة في القراءات: ص: 136-137.
- ¹⁰² - الكتاب - سيبويه، تح: عبد السلام هارون عالم الكتب، بيروت، لبنان - ط5 - ج3/320
- ¹² - كتاب العين: الخليل بن أحمد الفراهدي - تح: إبراهيم السامرائي، ومهدي المخزومي - وزارة الثقافة والإعلام العراقية 1985م - ج1/49

- ²²⁻ العين: ج 1/ 49
- ³²⁻ شرح المفصل: ابن يعيش، مكتبة المتنبي، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ج 1/ 32.
- ⁴²⁻ لطائف الإشارات: شهاب الدين القسطلاني، تح: الشيخ عامر السيد عثمان، د. عبد الصبور شاهين، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، 1393هـ/ 1972م، ج 1/ 183.
- ⁵²⁻ علم الأصوات اللغوية: د. مناف مهدي الموسوي، منشورات جامعة السابغ من أبريل، الزاوية، ليبيا، ط 1/ 1403-1993، ص: 110
- ⁶²⁻ مقدمة تهذيب اللغة: الأزهرى أبو منصور، تح: بسام عبد الوهاب الجابري، جار البصائر، دمشق، سوريا، ط 1، 1985، ص: 65
- ⁷²⁻ نفسه: 65
- ⁸²⁻ مجموع فتاوى أحمد بن تيمية: جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مكتبة المعارف، المغرب، ط 1، 111/ 12
- ⁹²⁻ الجمل في النحو: الخليل بن أحمد الفراهدي، تح: فخر الدين قباوة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 1: 1985، ص: 172.
- ⁰³⁻ ينظر: سر صناعة الإعراب: 15
- ¹³⁻ أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة: د/ نايف خرما، المجلس الوطني للثقافة والفنون دار الأدب، الكويت، ط: 2/ 1979، ص 87.
- ³²⁻ الخصائص: 2/ 321.
- ³³⁻ ينظر: المصدر نفسه: 2/ 325
- ³⁴⁻ نفسه: 2/ 325.
- ³⁵⁻ ينظر: المصدر نفسه: 2/ 326
- ³⁶⁻ ينظر: المصدر نفسه: 2/ 326
- ³⁷⁻ ينظر: المصدر نفسه: 2/ 322
- ³⁸⁻ سر صناعة الإعراب: 1/ 27.
- ³⁹⁻ الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني: د. حسام سعيد النعيمي، دار الطليعة للطباعة للنشر، بيروت، لبنان، ص: 333.

- ⁴⁰ - المنهج الصوتي للبنية العربية، رؤية جديدة في الصرف العربي ، د.عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1400هـ / 1980م، ص: 35.
- ⁴¹ - الأشباه والنظائر في النحو: 1/ 184.
- ⁴² - الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة: مكّي بن أبي طالب القيسي، تح: د. أحمد حسن فرحات، دار عمار، عمان، ط: 3، 1417هـ-1996م، ص 100.
- ⁴³ - سر صناعة الإعراب: 1/ 32.
- ⁴⁴ - الخصائص: 2/ 324.
- ⁴⁵ - ينظر: المصدر نفسه: 2/ 324، 325.
- ⁴⁶ - ينظر: المصدر نفسه: 2/ 222-224.
- ⁴⁷ - نفسه: 2/ 322.
- ⁴⁸ - ينظر: سر صناعة الإعراب: 1/ 30.
- ⁴⁹ - الرعاية : 98-99.
- ⁵⁰ - الخصائص: 2/ 327.
- ⁵¹ - نفسه: 2/ 327.
- ⁵² - المنهج الصوتي للبنية العربية: 35.
- ⁵³ - ينظر: الخصائص: 2/ 315-316.
- ⁵⁴ - شرح الرضى على الكافية: تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، 1/ 195.



